

الشخصية القومية من منظور آثاري-تاريجي: دراسة حالة السودان

*بروفيسور عبد الرحيم محمد خبير

قسم الآثار - كلية الآداب - جامعة جوبا

مقدمة:

السودان كتراكم ثقافي- تاريجي ظهر إلى حيز الوجود منذ آجال سحيقة في التاريخ. والمقصود بلفظ "السودان" هنا جمهورية السودان بحدودها السياسية الحالية، فضلاً عن المشيخات والسلطانات والمالك التي كانت قائمة داخل هذه الحدود منذ أزمان بعيدة. وقطنت هذا القطر أقوام عديدة متنوعة الأعراق والثقافات. ورغم أن سؤال الهوية القومية في السودان: من نحن، ما هي علاقتنا بالآخر وماذا نريد أن نكون؟ قد طرح بشكل جليًّا منذ عهد الحكم الثنائي (الإنجليزي - المصري) وعبرت عنه أهداف كل من جمعيتي اللواء الأبيض (1924) والاتحاد السوداني أغسطس 1920 ومؤتمر الخريجين (1938-1955م). ولكن باستقراء للتاريخ نلحظ أن السودانيين استطاعوا إنشاء العديد من المالك والدول التي قوامها خليط شتى من الأجناس والثقافات مدفوعين بأشواق الوحدة الثقافية والسياسية التي يتوقون إليها منذ عشرات القرون.

وتشهد الساحة السياسية والثقافية في السودان بعد اتفاقية نيفاشا للسلام بين الشمال والجنوب (9 يناير 2005م) تحولات وتطورات ليس لها نظير. ولعل أدق وصف لها ما ذكره أحد المثقفين السودانيين بأنها تبدو وكأنها عملية الاستقلال الثاني للسودان بعد حقبة مليئة بالانكسارات والانتصارات. وفي تقديرني أن العديد من قضايا السودان سيما السياسية والثقافية ومنذ قيام الدولة السودانية الحديثة في مطلع يناير 1956م ناجمة

* رئيس قسم الآثار وعميد كلية الآداب، جامعة جوبا.

عن عدم استلهامنا لمنجزات موروثنا الحضاري في أوجه حياتنا المختلفة بشكل كاف رغم أن التجربة الحضارية في السودان متفردة وثرة تألفت فيها بشكل كبير كل العناصر الإثنية (العرقية) والثقافية القابعة في أرض هذا الكيان منذ آلاف السنين. ويطرح هذا البحث منهجاً آثرياً Archaeo-historical – تاريجياً

Approach) لدراسة الشخصية القومية من خلال الأدلة المادية التي كشفت عنها التنقيبات الآثرية والسعادات التاريجية باعتباره يمثل قراءة علمية موضوعية للإجابة عن سؤال الهوية لمجموعات سكانية تتباين وبدرجات متفاوتة جغرافيا وإثنياً وثقافياً. فهل هنالك من الشواهد الأثرية والتاريجية ما يشير بأن هذا التنوع السوداني الماثل للعيان تؤطره قواسم ثقافية وحضارية مشتركة تسمح لنا بالإقرار بوجود كيان معنوي جامع يمكن أن يسمى "الشخصية القومية السودانية" أم أن هنالك "عدة شخصيات قومية" داخل هذا الكيان السياسي المسمى بـ "السودان؟"

مدخل عام:

تعتبر تعريفات الشخصية القومية من أكثر التعريفات التي تتميز بالتضارب والتعارض والغموض. بيد أن أكثر التعريفات شيئاًًا تلك التي ارتبطت بنظرية الثقافة والشخصية ولعل من أهمها تعريف لتون Linton⁽¹⁾ ومفاده أن مفهوم الشخصية القومية يقصد به "نمط الشخصية الذي يتميز بأكبر قدر ممكن من التكرار بين مختلف أنماط الشخصية في مجتمع محدد". ويرى يوسف سويف أن دراسة الشخصية القومية تعني "دراسة أكثر السمات الشخصية شيئاًًا في أي مجتمع للوصول إلى تقديم صورة مؤلفة من هذه السمات. وقد يكتفي الباحث بهذا الوصف أو يتبعه بمحاولة تفسير نشوء هذه السمات أو بدراسة مقارنة بين الشخصيات القومية في عدد من المجتمعات⁽²⁾".

وتجدر بالذكر أن لدى علماء الاجتماع الثقافي تحفظاً على تشبيه الأمة بالفرد من حيث وجود سمات ثابتة للشخصية خاصة وأن مثل هذه التشبيه يتميز بالتعيم

الشامل الذي لا يقبله العلم إلا إذا أحيط بتحوطات وشروط اشتراطات عديدة تؤدي إلى تضييق نطاقه⁽³⁾. ويختلط الباحثون في دراسة الشخصية القومية منهجين أساسين: فهناك من يرى أن الشخصية القومية تمثل سمات مشتركة في الأفراد الذين يعيشون في وطن معين بحيث يعد كل فرد منهم نموذجاً لهذه الشخصية وبحيث تتعكس على شخصيته الفردية تلك السمات التي يقال أنها سمات الشخصية القومية. وفي هذه الحالة فإننا ندرس الطابع "الفردي" للشخصية القومية. ومن وجهة نظري أن هذه النظرة لا تنطبق على الواقع السوداني لأنها تفترض تجانساً عرقياً وثقافياً بين مجموعاته السكانية. وهناك من يرى أن الشخصية القومية يمكن أن تبحث باعتبارها شخصية معنوية — تعلم معنى ما على الأفراد — أي هي واحدة من تلك الكيانات الجماعية التي لا ترد إلى مجموع عناصرها بل يكون لها شبه استقلال ذاتي قياساً بالأفراد الذين يؤلفونها. نلحظ في الحالة الثانية أن الاهتمام لا يتركز على الأفراد بل على ظواهر تتسم بطابع العمومية والديمومة النسبية. بحيث تسمح لنا بوجود ذلك الكيان المعنوي المسمى بالشخصية القومية وفي هذه الحالة فإننا ندرس الطابع "القومي" الشخصية الفردية⁽⁴⁾. ولا ريب أن هذا المدخل المنهجي الثاني هو الأكثر ملائمة لدراسة موضوع الهوية القومية في السودان لأنه يتركز على ظواهر حضارية تتسم بالعمومية مستمدة من تنوع ثقافي وثوابت حضارية حافظت على آصرة هذا القطر منذ أزمان موجلة في القدم برغم كل التحديات والمصاعب التي حلّت به.

—من منظور

وفي تقديرني أن حالة الشخصية القومية للنموذج السوداني

آثرياً — تاريخي — يمكن استبيانها في ثلاثة أبعاد هي:

1. بعد الإثنين (العرقي) 2. بعد الثقافي- الاجتماعي 3. بعد السياسي.

1. **البعد الإثنين (العرقي):**

شهد السودان القديم تحركات سكانية دونما انقطاع خلال أزمان وأحقاب متلاحقة بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى فترات التاريخ المدون. وتشير الخصائص

البشرية لعظام الهياكل العظمية التي كشفت عنها الحفريات الآثرية للحضارات المختلفة التي ازدهرت في السودان و المؤرخ أقدمها إلى ما يربو عن تسعة آلاف عام إلى صفات مشتركة عديدة للمجموعات السكانية التي قطنت هذا القطر شماله و جنوبه⁽⁵⁾. وتشير المخلفات الأثرية إلى اختلاط العناصر النوبية والزنجية والقوقازية في المنطقة المتدة من وادي حلفا إلى الخرطوم وجنوب الجزيرة والنيلين الأبيض والأزرق⁽⁶⁾. وتجمع المصادر الأثرية و التاريجية على وجود مجموعات سكانية متشابهة في صفاتها الجسدية وحضارتها عمرت جنوب السودان واحتللت خلال الألف الثالث قبل الميلاد حتى بداية الألف الأول الميلادي بالجماعات السكانية في أقاليم النيل الأزرق والأبيض وجنوب كردفان⁽⁷⁾. ونسبة لاستمرار اختلاط الأعراق و الثقافة في السودان يصبح – كما يرى العديد من الباحثين – الحديث عن جنس معين مرتبطة بشقاقة بعينها وعزله أو عزلها مما يجري من تفاعلات ثقافية-حضارية في المنطقة من وجهة النظر العلمية أو الواقعية أمراً مستحيلاً⁽¹⁰⁾. ولهذا أطلق علماء الأنثروبولوجيا الطبيعية صفة "السودانية" على المجموعات السكانية التي قطنت – ولا تزال – حدود السودان الحالي. ويزوغر القرن السادس عشر رسخت الخصائص السكانية للسودان كما نراها اليوم⁽¹¹⁾. وإذا كان هو الحال، يصبح الحديث عن تداخل اثني (عرقي) وتمازج واحتلاط بدرجات متفاوتة وصلات قرابة بين مختلف المجموعات العرقية في السودان حقيقة علمية تسندها الأدلة الأثرية والتاريخية ويفكدها الواقع المعاش.

البعد الثقافي – الاجتماعي:

1-2 اللغة:

كان للسودانيين مشروع للنهوض الثقافي بدأ إرهاصاته منذ عهد مملكة كرمة (2500-1500 ق.م) وتباور بشكل واضح للعيان في العهد المروي (900 ق.م-350) هدفه خلق أمة كوشية (سودانية) تتميز عن غيرها في أفريقيا والشرق الأدنى القدم. و لعل أبرز دليل على ذلك محاولة المرويين ابتداع أبجدية خاصة بهم في القرن الثاني قبل الميلاد. ورغم التأثير المصري الذي لا تخطئه العين في مناحي الحياة السودانية المختلفة لا سيما في الجانب الديني، إلا أن النسخة المشفقة السودانية في ذلك الزمان تكنت من ابتداع أبجدية (23 رمزاً) كتبت بها المعاملات التجارية والقانونية والأدعية الجنائزية على الحجر والمعادن والفالخار وعلى ورق البردي والجلود⁽¹²⁾.

ورغم أن هناك ظروفاً موضوعية عديدة ساعدت على التعجيل باختراع الكتابة المروية (الخط النسخي) أبرزها الانقطاع الشفافي عن مصر بعد فقدان السودانيين لسلطتهم السياسية في مصر وتقهقرهم جنوباً ليحكموا بلادهم من مروي (البحراوية) عام 663 ق.م⁽¹³⁾. إلا أنني أميل إلى رأي مفاده أن هنالك دافعاً ذاتياً قوياً أدى إلى اختراع الكتابة وهو رغبة ثلاثة من الصفة المشفقة المروية ذات الارتباط بالباطل الملكي في الإنعاش من إسار الثقافة المصرية الوافدة و العمل على بلوغ شعور بانتماء مشترك تجسده لغة محلية مكتوبة. ولا مشاحة أن اختراع الأبجدية المروية كان انحازاً حضارياً متفرداً لا يغير فقط لأهل السودان بل لأفريقيا قاطبة. و يمدد التنويه إلى أن اللغة المروية قد وصلت إلى أعتاب الأبجدية بل وتمثل و نظيرتها الأخيمنية-الفارسية مرحلة شبه الأبجدية. ويعتبرها كثير من الباحثين تقدماً على الكتابات القديمة (المصرية والسومية والبابلية والآشورية وكتابة بيلوس) في الشرق الأدنى القديم وتطوراً خطوط من خطوطها (المصرية والسومية)⁽¹⁴⁾.

وبعد نهاية الدولة الكوشية-المروية (350) لا تشير الأدلة الأثرية والسجلات التاريخية إلى محاولة جادة لابتداع أبجدية للتعبير اللغوي المشترك لأهل السودان. واستمر الحال على هذا المنوال طوال فترة الدوليات المسيحية (543-1504) حيث أمدتنا

الحفريات الآثرية بالعديد من المخطوطات والوثائق التي تشير إلى وضع لغوي مركب في السودان القديم يتسم بالتعددية⁽¹⁵⁾. وليس أدل على ذلك من أن هذه الوثائق كتبت بلغات متعددة تشمل اليونانية والقبطية والنوبية القديمة والعربية. بيد أن ظهور الكونفدراليات الإسلامية في أواسط السودان (سلطنة الفونج) وغرقه (سلطنة المسعبات والفور وتقلبي) فضلاً عن فترة الحكم المهدية أدى كل ذلك إلى اعتراف رسمي وشعبي باللغة العربية كأداة تواصل بين المجتمعات الثقافية في السودان منذ ذلك الزمان وإلى يومنا هذا رغم تخوف البعض من أن انتشار هذه اللغة ربما يؤدي إلى طمس هوياتهم الثقافية المتمثلة بشكل أساسي في لغاتهم ولهجاتهم المحلية وما تكتنزه من موروث ثقافي.

2- العادات والتقاليد:

ولعل من أبرز خصائص أهل السودان جمعياً هو التداخل الأسري والتلاحم الاجتماعي في الأفراح والأتراح. وهذه السمة متجلدة في نفوس السودانيين كما تشير معتقداتهم في العصور القديمة. وعند مجئ الديانات السماوية (المسيحية والإسلام) عملت أيضاً على ترسیخ مفاهيم الوئام والوحدة والحبة بين الناس على اختلاف مللهم ونحلهم. وتشير الأدلة الآثرية التي ترجع إلى العهد الكوشي (المروري) (350-900 م.ق.) إلى ظاهرة العائلة الممتدة (Extended Family) . وهي بالطبع تقليد سوداني صميم لم يتأثر -بشكل لافت للنظر - بالمتغيرات الاقتصادية عبر العصور بل ظل قيد الممارسة حتى يومنا هذا. فالعائلة عند السودانيين ومنذ العهد المروري كبيرة الحجم تشمل معظم الأهل والأقارب بعكس العائلة المصرية الفرعونية التي كانت تقتصر على الأبوين والأبناء. ومن الأدلة على عمق هذا التقليد وتجذرته في الوجدان الجماعي لأهل السودان أن أسلافهم كانوا وثيقى الصلة بأهلهم وذويهم ليس فقط في فترة حيائهم بل وحتى الذين ارتحلوا للدار الآخرة من ذوي المكانة الاجتماعية و السياسية كانوا يذكرونهم في شواهد قبورهم ونقوشهم الجنائزية، فضلاً عن طبيعة المنزل السوداني المشهور بالضيافة

والكرم منذآلاف السنين، فقد كان كبير المساحة، فأصغر منزل في العهد الكوشي -
المروي كانت عدد غرفه تصل إلى خمس و أكبر المنازل ذات ست وعشرين غرفة معدة
لاستقبال الأهل والمعارف والضيوف ⁽¹⁶⁾.

ومن العادات الجامعة لأهل السودان الشلوخ ولا تزال تمارس هذه العادة لدى
العديد من القبائل السودانية في شمال وجنوب البلاد رغم انحسارها النسبي في العقود
الأخيرة. وترجع هذه الممارسة إلى العهد الكوشي -المروي (900ق.م-350م) إذ تبين أنها
من الممارسات المألوفة في السودان القديم. وتشير اللوحات الأثرية لأشكال زعماء
(لوحة الملك المروي نتكماني و زوجته الملكة أمانيتيري في معبد الأسد بالنفعة مثلاً
لذلك) وأناس عاديين تظهر على خدوthem وجماهم أنماط متنوعة من الشلوخ ⁽¹⁷⁾.

ومن العادات التي لا تزال مستمرة في أغلب بقاع السودان عادة استخدام
السرير الخشبي (العنقريب) وحمل الموتى عليه. وترجع عادة استخدام العنقريب لحمل
الموتى إلى ما يزيد عن أربعة آلاف عام إذ ترجع إلى مملكة كرمة (1500-2500ق.م)
بشمال السودان حيث كان يوضع المتوفى على سرير خشبي (عنقريب) في وضع
قرفصائي داخل المقبرة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقريب الكرمي كان يطعم أحيانا
بالمليكا والعاج. واستمر استخدام العنقريب للموتى حتى العصر الحالي مع اختلف في
نوعية وكيفية استخدامها إذ اختفت عاد دفن الموتى بالأسرة واستعيض عنها بحمل
المتوفى فقط على السرير (العنقريب) إلى مكان المقبرة ⁽¹⁸⁾.

3-2 الفنون : يعتبر الفخار من أكثر أنماط الفنون المادية التي تكشف بجلاء عن الهوية
الثقافية لأصحابه. ولقد تميزت فخاريات عصور ما قبل التاريخ في السودان بأنها يدوية
الصناعة وتغلي في معظمها إلى اللون البني بدرجات متفاوتة كما وأن بنائها تتراوح بين
الرمل (الكوارتز) والمواد العضوية (التبن والقش). ووجدت فخاريات هذه الفترة في
العشرات من المستوطنات المتباude جغرافيا شملت وادي النيل ومنطقة البحيرات

الاستوائية وشمال أفريقيا وغربها، وبما كان ذلك بداعي اتصال حضاري مباشر أو غير مباشر حيث أن الظروف الجغرافية المطيرة في عصر الهولوسين (Holocene) كانت مواتية للتنقل والتدخل الحضاري عبر بقاع شاسعة. وفي ظني أن القاسم المشترك الأعظم لهذه المستوطنات المنتمية لعصر ما قبل التاريخ المتأخر (حضارة الخرطوم الباكرة، 5000-7500 ق.م) هو اشتراكها في قيم ومفاهيم جمالية عبرت عن نفسها بصورة جلية في نماذج مميزة من صناعة الفخار وزخرفته بصورة متفردة، أبرزها الطراز ذو الزخرفة المتموجة المتصلة (Wavy-lines). وهذا التجانس القيمي والجمالي يعهدد فرضية مؤداها أن هذه المستوطنات المتبااعدة الأطراف (داخل وخارج السودان) تمثل أنموذجاً لمنطقة ثقافية مشتركة بدورها الخرطوم خلال المرحلة المتأخرة لحقبة ما قبل التاريخ في أفريقيا⁽¹⁹⁾.

وفي عهد مملكة كرمة (2500-1500ق.م) تطورت صناعة الفخار السوداني من حيث الصنعة والحرق والتشكيل والزخرفة بصورة تصاكي نظائره في أفريقيا والشرق الأدنى القديم. وفي عهد مملكة مروي (350-900ق.م) بلغت صناعة الفخار شأواً كبيراً حيث أنتجت مروي القديمة فخاريات متميزة تعتبر من أجود ما صنعه العالم القديم من الفخار. وخلال عهد الممالك المسيحية (543-1504) حافظت صناعة الفخار السوداني على مستواها التقني الرفيع بفضل الاستخدام الواسع لعجلة الخزاف وبرزت أنماط جديدة من الأواني والأدوات والزخارف. أما في العهود الإسلامية فقد غلت الأنماط المحلية على صناعة الفخار المتأثرة بتقاليد متوارثة وإن تم العثور على أنماط مستوردة من مصر والجزيرية العربية وشرق أفريقيا⁽²⁰⁾. وتلزم الإشارة هنا إلى أن هناك تجانساً كبيراً تقنياً وثقافياً بين أقوام هذه المجموعات الفخارية في كل فترة تاريخية على حد سواء. وفي ذات الوقت لابد من التسويه إلى قواسم حضارية مشتركة خلال الفترات التاريخية المتعاقبة للحضارة السودانية تؤمّن إلى الوحدة الثقافية التي جمعت بين أسلافنا الذين أبدعوا فنون هذه الفخاريات صناعة وتشكيلها وزخرفتها في كل الممالك

والدول التي أقاموها في السودان القديم.

3- البعد السياسي:

محاولات السودانيين وأشواقهم نحو انتماء مشترك -وحدة في المشاعر والإرادة والمصالح- تحسده وحدة سياسية تستوعب التنوع الإثني (العرقي) والثقافي ليست وليدة اللحظة بل ترجع إلى أزمان بعيدة في التاريخ. وتشير المكتشفات الأثرية إلى أن أول المحاولات نحو بلوحة نظام سياسي- اجتماعي ي العمل على تنظيم العلاقات الاقتصادية و الثقافية بين المجموعات السكانية إلى قطنت السودان القديم قد تمت في حقبة ما قبل التاريخ المتأخر حيث تحولت المجموعات القبلية إلى مشيخات (Chiefdoms) وتوحدت الأخيرة في بوتقة دولة المدينة (City-State) التي تمثلها مملكة كرمة في شمال السودان (2500-1500ق.م) والتي تعتبر أول بناء سياسي مؤسسي تحت سلطة مركزية جمع السودان القديم (كوش) تحت وحدة ثقافية واقتصادية يسندها جيش نظامي دخل به المعترك العالمي. وكان لهذه الدولة السودانية الباكرة ثقلها الإقليمي في أفريقيا والشرق الأدنى القديم⁽²¹⁾.

وأتسمت الفترة التاريخية الواقعة بين نهاية دولة كوش الأولى (مملكة كرمة) وبزوغ دولة كوش الثانية (مملكة مروي) (900-1500ق.م) بالغموض والضبابية إلى حد كبير، فلم ترددنا التنقيبات الآثرية والسعادات التاريخية بمعلومات وافية عن الأحوال في السودان (كوش) آنذاك. و كل ما نعرفه أن السودان القديم قد دخل دائرة النفوذ المصري مرة أخرى في عهد الدولة المصرية الفرعونية الحديثة (1085-1580ق.م) ووصل النفوذ المصري إلى الشلال الرابع في عهد الملك المصري تحتمس (1530-1520ق.م). ودخلت مصر فترة من عدم الاستقرار السياسي (1085-751ق.م) تمكن خلالها السودانيون من استعادة نفوذهم السياسي وتأسيس دولتهم الثانية (900-350ق.م). وتعتبر مملكة مروي المحاولة الثانية لأهل السودان للوحدة السياسية حيث بُرِزَت على المسرح السياسي كدولة قوية في جنوب وادي النيل في مطلع القرن العاشر قبل

الميلاد. وتمكنَت هذه الدولة من دحر النفوذ الأجنبي وبناء مملكة قوية دامت ما يربو عن اثنين عشر قرنا. وتعتبر مملكة مروي صورة مصغرة لسودان اليوم بتباين ثقافاته وأعراقه وأدخلت في دائرة نفوذها ما يقارب ثلثي المساحة المكونة لسودان الحديث. وتنامي نفوذ هذه الدولة في بعض فترات التاريخ لتُصبح إمبراطورية تحكم وادي النيل ما يقارب قرنا من الزمان⁽²²⁾.

واختطت مملكة مروي مشروعها للنهوض التقني تمثّل في تعدين وصهر وتصنيع الحديد. ولا يخفى علينا ما للحديد من فوائد جمة على مر العصور وفي مختلف مناحي الحياة. وأثبت الشاهد الأثري أن السودان القديم كان أول دولة أفريقية عرفت صناعة الحديد (القرن السادس قبل الميلاد) مسجلاً تفوقاً تقنياً على مصر الفرعونية التي لم تعرف هذه التقنية إلا بحلول القرن الرابع قبل الميلاد. ولم تقتصر صناعة الحديد على المناطق الحضرية على مقربة من النيل بل ضمت مناطق متراصة الأطراف في أواسط السودان (الجزيرة) وجنوب شرق البلاد (جبل موية)، فضلاً عن أقاليم غرب السودان (كردفان و دارفور) مما يوحي إلى أن صناعته كانت تمثل ظاهرة مجتمعية في السودان القديم. ولم تقتصر صناعته على الأسلحة للجيوش الملكية المروية بل شملت مستلزمات حياتية عديدة من بينها أدوات زراعية وجراحية مجلفة لحمايتها من الصدأ⁽²³⁾.

وتشير المخطوطات والأدلة الأثرية إلى أن الهميـار دولة كوش الثانية (مروي) أدى إلى تشظي وتشرذم البلاد لفترة دامت قرنين ونيفـاً من الزمان انفرط خلاها عقد الدولة المركزية. وبنهاية هذه الفترة برز نموذج الدولة الشيـوـقراـطـية (Theocratic-State) ممثلاً في ظهور الممالك المسيحية الثلاث (نوباتيا في أقصى الشمال وتمتد من أسوان إلى أقرب الشلال الثالث وعاصمتها فرس، والمغرة التي تحتل المنطقة الممتدة من قرب الشلال الثالث إلى الأبواب (كبوشية الحالية) وعاصمتها دنقلا العجوز في حين أن مملكة علوة وعاصمتها سوبا جنوب الخرطوم تشمل منطقة شاسعة تمتد من الأبواب (كبوشية شمالاً إلى القطينة على النيل الأبيض جنوباً كما ضمت أجزاء من عطبرة والنيل

الأزرق حتى الحدود الأثيوبية وبعض جهات دارفور وكردفان)⁽²⁴⁾. وتوحدت الملكتان الشماليتان (نوباتيا والمغرة) – في وقت غير معروف على وجه الدقة – في مملكة واحدة عرفت باسم "المغرة" وحاضرها دنقلا العجوز وذلك لتأمين حدودها الشمالية ومواجهاً أي غزو عسكري من مصر التي خضعت للحكم الإسلامي في الثلث الأول من القرن السابع الميلادي.

واستمر نموذج الدولة الشيقاراطية حتى بعد انهيار الممالك المسيحية وظهور دولة الفونج في مطلع القرن السادس عشر بسبب التحالف بين الفونج والعرب (العبدالاب) في أواسط السودان والذي أدى إلى زوال مملكة علوة وتكون مملكة الفونج (السلطنة الزرقاء) التي امتد نفوذها من دنقلا شمالاً إلى فازوغرلي جنوباً ومن البحر الأحمر (سوakin) شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً. وكانت هذه المملكة تمثل أقوى وحدة سياسية ظهرت في السودان في العصر الوسيط. وتحدر الإشارة إلى أن هذه الدولة كانت تمثل اتحاداً طوعياً أو كونفدرالية للعديد من المشيخات أبرزها العبدالاب (عاصمتها أرجعي)، الجعليين (شندي)، الميرفاب (بربر)، الرباطاب (أبو حمد)، المناصير (سلمات) والشايقية (مروي)، فضلاً عن مشيخات أخرى أصغر حجماً في كل من ضفر ودنقلا والخندق وأرقو. واتحدت كل هذه المشيخات والوحدات القبلية تحت نفوذ دولة الفونج بهدف حماية القوافل وتجارة العبور (Transit) وترقية التجارة الداخلية وتوفير الأمن ضد الغزوات الخارجية⁽²⁵⁾. ولا شك أن قيام دولة الفونج كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان السياسي والاجتماعي والثقافي. ورغم ظهور بعض الممالك الإسلامية الأخرى في أجزاء أخرى من السودان مثل دولة المسبعات (1559-1821م) ودولة تقلي (1570-1927م) ودولة الفور (1640-1874م، 1898-1916م) إلا أن دولة الفونج تعتبر أكبر هذه الممالك وأكثرها منعة وتأثيراً على مجريات السياسة الإقليمية حيث امتد ظل سلطانها على عدد من المشيخات تشمل منطقة شاسعة تمتد من دنقلاً شمالاً إلى سنار جنوباً ومن البحر الأحمر (سوakin) شرقاً إلى النيل الأبيض

غرباً كما ضمت أجزاء من إقليم كردفان . ورغم نجاح دولة الفونج في إقامة دولة كونفدرالية تشمل عدداً من المشيخات السودانية، إلا أن محاولاتها لإقامة كيان سياسي عريض يضم، فضلاً عن ذلك، المالك الإسلامية الثلاث في غرب البلاد (المسبعات وتقلی والفور) قد جانبها التوفيق⁽²⁶⁾ .

وشهدت فترة الحكم التركي-المصري (1821-1885م) بزوع أول وحدة سياسية للسودان الحديث بالرغم أن المدف الأسمى من ضمه للدولة العثمانية كان استعماريًّا-اقتصادياً. بيد أن قيام حكومة مرکزية في ذلك العهد بسطت سلطتها على أغلب المناطق التي كانت تحت حكم المشيخات والسلطانات السودانية كان إيذاناً ببداية مرحلة جديدة من تاريخ السودان الحديث. وفشل الدولة التركية في حكم البلاد بسبب طبيعتها الاستغلالية وقهرها للشعب السوداني.

- ويُجدر التنويه إلى أن ذلك التغيير السياسي في العهد التركي-المصري (1821-1885م) متمثلاً في الواجهة السياسية (نظام استعماري-اقتصادي) وفرض سلطة الدولة المركزية على معظم أجزاء السودان الذي كانت تتقاسمها العديد من السلطانات والمشيخات (الفونج والمسبعات والفور وتقلی وغيرها) لم يترافق مع تغيير جوهري في بنية الشخصية السودانية التي حافظت على اتساقها وانسجامها بشكل كبير حتى بعد زوال سلطتها الوطنية. وكان للدور الذي لعبه رجال الطرق الصوفية الذين كانوا ينتقلون بين أرجاء الأقاليم السودانية وما لهم من أنصار ومربيدين أثر كبير في الحفاظ على درجة عالية من التناجم الثقافي بين معظم شرائح المجتمع السوداني. وقد تجلّى هذا الانسجام الثقافي والتواافق الروحي بين المجموعات السودانية في بزوع الثورة المهدية (1881-1885م) التي تمثل نظاماً ثيوقراطياً استند على تعاليم إسلامية متّسحة بروح وطنية⁽²⁷⁾.

وتمكنَت الثورة المهدية (1881-1885م) من استقطاب الكيانات السودانية التي تضررت من نظام الحكم التركي-المصري. ولم يقتصر تأثير المهدية الفكرية على

شمال السودان بل تعداده إلى جنوب البلاد كما يتبدى ذلك في دمج الدينكا أكبر قبائل الجنوب لفكرة المهدية العربية-الاسلامية في تراتيلهم وصلواتهم⁽²⁸⁾. ونجح المشروع الأيديولوجي للثورة المهدية في تحرير السودان من نير الحكم الأجنبي وإقامة دولته الوطنية. غير أن حقبة المهدية تميزت بعدم الاستقرار السياسي والحروب الخارجية سيما في آخريات عهدها. وأدى كل ذلك إلى إهانة مفاصل الدولة التي فشلت في حماية حدودها مع دول الجوار حيث مالت هذه الحدود إلى التناقض وانعدام الفعالية بسبب عدم وضع حاميات بها بشكل دائم فكانت الشغرة التي نفذ منها الغزو الانجليزي-المصري للسودان عام 1898م واضعا النهاية للدولة السودانية الرابعة.⁽²⁹⁾.

دخل السودان في عهد الحكم الثنائي (الانجليزي-المصري) عام 1898م مرحلة جديدة من تاريخه الحديث حيث استطاعت الدولة الاستعمارية (Colonial State) أن تفرض مشروعها السياسي والثقافي على أهل السودان، إلا أنها لم تستطع أن تمحو أو تزيل النظم والثقافات المحلية للمجموعات السودانية وربما عملت على إحيائها في بعض الحالات. ومن جهة أخرى، لم تفلح هذه الدولة في إحكام قبضتها على الأراضي السودانية بصورة نهائية و كاملة، إذ أن المعارضة والثورة استمرت لفترة طويلة إلى أن تحقق الاستقلال في غرة يناير 1956م⁽³⁰⁾. وقامت الدولة السودانية الحالية في حدود الملك والسلطانات السودانية القديمة وتلك التي رسماها الحكم الأجنبي وفق مواثيق ومعاهدات دولية.

الخلاصة:

وما تم إيراده آنفا يلحظ أن هنالك قواسمًا ثقافية و حضارية مشتركة في اللغة والعادات والتقاليد وأشكال الوحدة السياسية لأهل السودان جميعاً. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هنالك شعورا بالانتماء المشترك لسكان السودان منذ القدم. وليس أدل على ذلك من مشاريع النهوض الحضاري (ثقافيا وتقنيا وسياسيا) والتي

كشفت عنها الحفريات الآثرية والسجلات التاريخية و التي لا تجترحها إلا أمة تشعر بتمايز عن غيرها من الأمم. وهذا بالطبع لا يتأتى إلا ببلوغ الحد الأدنى من التحانس النقافي والحضاري الذي يسمح بالإقرار بوجود كيان معنوي جدير أن يسمى بـ "الشخصية القومية" بغض النظر عن الولايات العرقية والجهوية والأيديولوجية، وهذا ما كان من شأن السودان منذ عشرات القرون.

الهوامش

- Linton, R.1964. **The Cultural Background of Personality.** N.Y. -1
Appleton Century-Crofts.
- 2 سامية حسن الساعاتي، **الثقافة والشخصية: بحث في علم الاجتماع الشفافي** (بيروت، دار النهضة العربية، 1983) ص 251-252.
- 3 انظر: فؤاد زكريا، آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة (القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1975) ص 163.
- 4 المرجع نفسه، ص 165.
- 5 أحمد محمد على الحاكم، **هوية السودان الثقافية: منظور تاريخي** (الخرطوم، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1990) ص 31-32.
- 6 نفس المرجع والصفحات.
- P. Robertshaw, and Ari Siiriainen 1985. “Excavations in Lakes -7 Province, Southern Sudan”, in: **Azania**, vol.20; 141-148.
- E. Kleppe, 1982. “The Debbas on the White Nile, Southern Sudan”, in: -8 **Culture History in the Southern Sudan.** (J.Mack and P.Robertshaw, eds) Memoir No. 8 of the British Institute in Eastern Africa, pp. 59-70.
- 9 أحمد محمد على الحاكم، 1990، مرجع سابق، ص 32-33.
- 10 عمر حاج الزاكي، ”عوامل الاستمرارية والتغيير في ملامح الثقافة السودانية: منطقة وادي النيل الأوسط (النموذج السوداني)“، دراسات أفريقية، مركز البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، العدد الثالث والعشرون، يونيو 2000م، ص 59.
- 11 أحمد محمد على الحاكم، 1990، مرجع سابق، ص 32-33.
- 12 المرجع نفسه، ص 52-53.
- 13 محمد إبراهيم بكر، **تاريخ السودان القديم** (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، 1971) ص 136.
- 14 عبد القادر محمود عبد الله، **اللغة المروية: الجزء الأول** (الرياض، مطابع الملك سعود، 1986) ص 155-158.
- 15 عبد الرحيم محمد خبير، ”المجزرات الفكرية والتقنية للحضارة السودانية“، مجلة جامعة جوبا للآداب والعلوم، العدد الرابع، يونيو 2005م، ص 18.
- A.M.Abdalla, 1978. “Meroitic Civilization: Its Mediterranean -16 Contacts and Africanness”, **Afrique Noire et Monde Méditerranéen**

- dans I ‘Antiquité’, Dakar: 155-158.**
- 17- أحمد محمد على الحاكم، "النوبة وتاريخ السودان القديم" آداب، مجلة كلية الآداب، جامعة الخرطوم، العدد الرابع، 1981م، ص98-99.
- 18- أحمد محمد على الحاكم وشارلس بونيه. **كرمة مملكة النوبة، تراث أفريقي من عهد الفراعنة** (ترجمة صلاح الدين محمد أحمد) (الخرطوم، شركة دار الخرطوم للطباعة والنشر والتوزيع، 1997) ص81، 187.
- 19- عبد الرحيم محمد خبير 2005م، مرجع سابق، ص.11
- 20- المرجع نفسه، ص11-12.
- 21- عبد الرحيم محمد خبير، "تشوه الدولة السودانية: منظور آركيولوجي-تاريجي" دراسات أفريقية، مركز البحوث و الدراسات الأفريقية، جامعة أفريقيا العالمية، العدد الثامن والعشرون، ديسمبر 2002م، 26-27.
- 22- المرجع نفسه، ص27.
- 23- عبد الرحيم محمد خبير، "السودان القديم: بداية صناعة الحديد في أفريقيا"، أدواتو (المملكة العربية السعودية)، العدد الأول، يناير 2000م، ص42-49.
- 24- عبد الرحيم محمد خبير 2002م، مرجع سابق، ص 27-28.
- 25- المرجع نفسه، ص28.
- 26- المرجع نفسه، ص 29-35.
- 27- المرجع نفسه، ص 35-36.
- 28- انظر: حيدر إبراهيم على، "السودان والوحدة العربية: خصوصية الدور والانتماء"، المستقبل العربي، السنة الثامنة، العدد الرابع والخمسون، أغسطس 1983م، ص84.
- 29- عبد الرحيم محمد خبير 2005، "النزاعات الحدودية بين السودان والدول المجاورة (1956ق.م-2500ق.م)" منظور آركيولوجي-تاريجي، مقال غير منشور، ص 19-20.
- 30- عبد الرحيم محمد خبير 2002م، مرجع سابق، ص36.